# الواقعية:

## محاولات تسيير أعمال منطقة الشرق الأوسط

**" الواقعية" مصطلح ذو مائة وجه، 90 في المائة منها جيد، والـ 10 في المائة الأخرى تخضع للنقاش**، ويمثل كل ذلك إطاراً للتفكير يمكن ملاحظة ملامح صارمة له في مدرسة من مدارس التفكير في العلوم السياسية ودراسات الأمن، هي "المدرسة الواقعية" التي توجه العقول – في صورتها التقليدية - إلى ضرورة التركيز على أهمية الدولة ودوافع المصلحة وتأثيرات القوة في فهم ما يدور، ولم تتمكن النظريات التالية من "طرحها أرضاً"، على الرغم من الانتقادات الحادة لتلك الطريقة في التحليل، بل يبدو أن افتراضاتها تعود بقوة لتسيطر في الوقت الحالي.

**وبعيداً عن "الأكاديميا"، تسيطر قواعد تفكير كثيرة، ذات توجه واقعي** على النقاش العام، في مقالات الرأي بالصحف اليومية وبرامج الحوارات في القنوات الفضائية، تحاول إعادة اكتشاف تعبيرات مثل "فن الممكن" أو "الحلول الوسط" أو المساحات الرمادية، أو التعايش مع المشاكل. كما يبدو في عالم السياسة بوضوح شديد أن احتمالات الحرب تتحول إلى صفقة تفاهمات، أو الإقرار بأمر واقع، كما يتم التراجع عن توجهات وقرارات بدت وكأنها استراتيجية ولا بديل لها، باستثناء عالم التواصل الاجتماعي، الذي لاتزال تحكمه قواعد خاصة تستعصي على الواقعية.

**ببساطة شديدة**، فإن كل الأطراف الفاعلة أو العاقلة في الإقليم، قد اتجهت نحو تبني أفكار أو توجهات أو سياسات تتفاعل بشكل شديد "البرجماتية" مع ما يدور حولها، مستبعدة كل فكرة متسلطة أو جامدة أو حتى "تاريخية"، ولو مؤقتاً، لكي تتمكن من تسيير أوضاع الإقليم في المرحلة الحالية، من دون صدامات غير ضرورية، يمكن أن يتم الانزلاق إليها من دون قصد، للتخلص على الأقل، من تيارات ظلامية أو متوحشة تكاد تطيح بما بقي من الإقليم، مهددة بقاء وهوية دول المنطقة، بشكل لم يسبق له مثيل منذ اجتياح التتار لها، بداية من فارس وبغداد والشام وحتى أبواب القاهرة. وبالطبع لا تسير الأمور بتلك الصورة، فهناك تعقيدات حادة، وقد وجد دائماً من يتعاون مع التتار، لكن البقاء أصبح اسم لعبة أمم الشرق الأوسط حالياً.

**إن الملامح العامة لتوجهات الأطراف المؤثرة على شؤون الإقليم في المرحلة الراهنة تشير إلى وجود "واقعية جديدة"**، يبدو معها أن الجميع – باستثناءات محدودة - قد قرروا مرة واحدة أن يتفاعلوا بمرونة شديدة، مع ما يجري، مع تجاهل مؤقت للخلفيات التاريخية أو المشاكل المذهبية أو الحساسيات الشخصية لكي يتم التمكن من تسيير أعمال الإقليم، بهدف وقف التدهور حتى لا تصل المنطقة إلى حافة الانهيار، حتى لو وصل ذلك إلى تفاهمات كانت تبدو – منذ فترة قصيرة – غير محتملة، أو سياسات حادة لم يكن من المتصور، في ظل التعقيدات الحالية، أنها ممكنة، مع القابلية للتفكير في تنازلات أو دفع ثمن ما، **وهنا توجد مؤشرات تتعلق بالطريقة التي تتفاعل بها الدول مع بعضها البعض حالياً، منها ما يلي:**

**1- إن هناك إعادة اعتبار واضحة للكيانات الكبيرة المنظمة الموحدة التي تسمى "الدول"**، فقد وضح أولاً أن انهيار أي دولة أو فشلها في أداء مهامها، يضع الشعب والأرض والحكومة والسيادة – وهي ما اصطلح على أنها مكونات الدولة – على حافة المجهول الذي يتضمن سيناريوهات شديدة السوء، مثل انهيار الحكومات المركزية والفوضى داخل العواصم، وتقسيم أراضي الدولة، وإثارة المشاعر المذهبية، ولجوء السكان إلى الدول المجاورة، وانتشار العدوى في المناطق القريبة. وعلى الرغم من أن الدولة وحدها لم تعد الفاعل الوحيد في إدارة الشؤون الداخلية والعلاقات الإقليمية، فإن ما قام به "الفاعلون ما دون الدول" خلال الفترة الماضية، أثبت أن الدول "إذا توحدت داخلياً" هي الفاعل الأقوى في تحديد مصير نفسها وتفاعلات الإقليم، وأن دولة موحدة بنظام سيئ أقل خطورة من دولة منهارة أو فاشلة تتحول إلى بركان يلقي بالحمم في كل اتجاه. وهي فكرة واقعية بامتياز.

**2- إن الأطر التقليدية لإدارة العلاقات الإقليمية قد بدأت تشهد إعادة نظر**، ففكرة أن هناك دولة يمكن أن توصف إلى الأبد بأنها "عدو" لأسباب أيديولوجية أصبحت معرقلة لتسيير أعمال الإقليم، لذا احتلت "البرجماتية" موقع "الأيديولوجية" ولو مؤقتاً، وتم كبح التوجهات الشخصية أو الميول النفسية أو الحسابات الخاصة من جانب البعض. كما وضح أن هناك حدوداً لسياسات الاحتواء والعقوبات في مواجهة الدول الشقيقة أو الكبيرة، إلا على مدى أطول وبثمن أكبر مما يتصور، وبالتالي ظهرت توجهات تتعلق بما يمكن أن يسمى "النوم مع العدو"، بحيث يتم التفاعل معه والتحسب لأعماله في نفس الوقت، ويمكن لأي تحليل بسيط لمواقف دول المنطقة تجاه الحرب ضد "داعش" أن يكشف عن تعقيدات لا نهاية لها، بشأن الطريقة التي تدار

بهـا أعمـال الإقليـم حاليـاً.

**3- وبالتالـي** (وهـي الفكـرة المكملـة) **فـإن التراجـع عمـا يعتقـد أنـه "ثوابـت" وارد فـي كل الأحـوال**، فهنـاك قـرارات بشـن حـروب تـم التراجـع عنهـا وقـرارات بعـدم الخـوض فـي حـروب تمـت إعـادة التفكيـر فيهـا، وقـرارات بتأديـب "أطـراف شـريرة" تـم التريـث فـي التصعيـد فيهـا، ولـم يكـن الأمـر فـي كل الأحـوال يرتبـط بالخشـية مـن نتائـج التصعيـد، وإنمـا باعتبـارات تتعلـق بأنـه لـم يكـن هنـاك خيـار آخـر سـوى التصعيـد، الـذي يـؤدي إلـى نتائـج غيـر محسـوبة للطرفيـن، خاصـة إذا كان الطـرف الآخـر– بفعـل تركيبتـه الداخليـة – غيـر قـادر علـى السـيطرة، فـدول الإقليـم لا تهـدف حاليـاً إلـى السـيطرة علـى سـلوكها فقـط وإنمـا السـيطرة علـى سـلوك الطـرف الآخـر أيضـاً، وبالتالـي ظهـرت قاعـدة وهـي أنـه يجـب أن تكـون هنـاك حـدود للتصعيـد حتـى لا يضـار الطرفـان معـاً، لـذا بـدأت التفاهمـات، لكنهـا ليسـت مفتوحـة أو "دون شـروط".

**هنـاك نوعيـة أخـرى مـن المؤشـرات التـي تتعلـق بالطريقـة التـي تتصـرف بهـا الـدول فـي مواجهـة مصـادر تهديـد أمـن الإقليـم، منهـا مـا يلـي:**

**1- إن معظـم الـدول أصبحـت تعتقـد أنهـا لا يمكـن أن تظـل "سـاكنة" تجـاه مـا يـدور فـي المنطقـة**، فمـا كان يسـمى Do Nothing لـم يعـد خيـاراً مطروحـاً علـى قائمـة اختيـارات دول المنطقـة، فـي مواجهـة تهديـدات ومخاطـر لـم تعـد تفصلهـا سـوى مئـات الكيلومتـرات عـن معظـم الـدول. وبالطبـع يمكـن أن يكـون هنـاك مـن يأمـل فـي أن لا تصـل المشـكلات إلـى حـدوده، أو أن يحلـم بـأن لا يواجـه موقفـاً كالـذي تواجهـه دول أخـرى شـقيقة أو قريبـة، أو أن تكـون لديـه مواريـث مـن حسـن النيـة التـي تتيـح لـه تخيـل أنـه قـادر علـى التعامـل مـع الموقـف عندمـا يواجهـه، أو أن يقـرر أن لا ينضـم إلـى "جماعـة المواجهـة" مكتفيـاً بالمسـاندة، حتـى لا تنتبـه لـه مصـادر التهديـد القريبـة مـن حـدوده، لكـن بصفـة عامـة أصبحـت "اسـتراتيجيات العمـل" سـمة سـائدة فـي المنطقـة.

**2- إن كثيـراً مـن دول المنطقـة أصبـح يـدرك بوضـوح أن مسـألة اسـتخدام القـوة، لا منـاص منهـا، فـي أحـوال محـددة،** فالجيـوش أصـلاً قـد شـكلت لتحـارب، والأسـلحة قـد وجـدت لتسـتخدم وقـت الضـرورة، وهنـا أطـراف مناوئـة لا تحـاول فقـط ردع الجميـع، وإنمـا بـث الرعـب فـي قلوبهـم، ولا يوجـد حـل سـوى بـث الرعـب فـي قلوبهـا هـي نفسـها. فقـد ظهـرت فـي المنطقـة جماعـات لا تجـد مشـكلة فـي اقتحـام العواصـم أو فصـل الـرؤوس أو تدميـر أبـراج الكهربـاء ولـو تمكنـت مـن القيـام بمـا هـو أسـوأ لفعلـت، ولا يبـدو أنـه يمكـن الاتصـال أو التفـاوض أو التفاهـم معهـا، فهـي تتعامـل مـع العالـم علـى أنـه يضـم دارين؛ دار للكفـار الذيـن يجـب أن يسـتباحوا ويقتلـوا ويأسـروا ويتـم بيعهـم فـي سـوق العبيـد، ودار للإسـلام الـذي يبـدو أكثـر دمويـة ممـا يمكـن أن تفسـر بـه أي نصـوص إيمانيـة، وهنـا تحسـم القـوة الموقـف، فإمـا أن يسـتفيقوا أو يموتـوا.

**3- إن معظـم أطـراف المنطقـة قـد تيقـن مـن أن مسـألة التحالفـات أو الائتلافـات أو التفاهمـات تمثـل مسـألة أساسـية فـي المرحلـة الحاليـة**، فـلا يوجـد طـرف واحـد علـى اسـتعداد لخـوض حـرب إقليميـة كبـرى وحـده، ولا توجـد ضـرورة لذلـك أيضـاً، خاصـة أن مصـادر التهديـد الحاليـة فـي المنطقـة هـي بطبيعتهـا عابـرة للحـدود، وعابـرة للأقاليـم، وبالتالـي أصبحـت التحالفـات مسـألة أساسـية، سـواء تـم التعبيـر عنهـا بمصطلـح دول الجـوار، التـي تضـم أطرافـاً تؤثـر عليهـا أوضـاع دولـة ملاصقـة، أو ائتلافـات الراغبيـن، التـي تؤثـر علـى مصالحهـم تهديـدات تتجـاوز فـي خطورتهـا حجـم المشـاكل المتراكمـة بيـن أطرافهـا. وعلـى الرغـم مـن أن تشـكيل التحالفـات ليـس مسـألة سـهلة، فهنـاك مشـكلات الأهـداف والقيـادة والتمويـل والعمليـات و"الاسـتئذان"، وغيرهـا، فـإن التحالفـات أصبحـت مسـألة أساسـية.

**فـي إطـار كل ذلـك، فـإن فكـرة النصـر والهزيمـة قـد تقدمـت أو تعقـدت بصـورة تمثـل إنجـازاً حقيقيـاً للتفكيـر الاسـتراتيجي فـي منطقـة الشـرق الأوسـط**، فبعيـداً عـن الأفكار الرومانيـة القديمـة التـي أشـار فـي إطارهـا قائـد أحـد الجيـوش إلـى "أن انتصـاراً آخـر قـد يدمـر جيشـه" بفعـل حجـم الخسـائر البشـرية التـي تكبدهـا فـي معركـة انتهـت بانتصـاره، تـدرك معظـم الـدول حاليـاً أنـه فـي صراعـات المنطقـة لـم يعـد هنـاك نصـر سـاحق أو هزيمـة فادحـة، وإنمـا مسـتويات مـن الانتصـارات والهزائـم فـي الحقيقيـة، فـي مباريـات أو معـارك طويلـة المـدى، تسـتخدم فيهـا كل أدوات القـوة، وهـي مسـألة لا يوجـد حـل لهـا، فكل طـرف يقـرر مـا يجـب أن يقـوم بـه، محـاولاً تحقيـق أهدافـه بالتـوازي مـع تقليـص خسـائره، ومصارحـة شـعبه، بأنـه فـي حالـة حـرب مزمنـة، وقـد تصبـح مؤلمـة، لكـن لا يوجـد مفـر مـن خوضهـا، ولـن توجـد احتفـالات فـي نهايتهـا.

**وهكـذا، فـإن هنـاك ملامـح واقعيـة جديـدة فـي منطقـة الشـرق الأوسـط أدت إلـى توجهـات عمليـة فـي التعامـل مـع الأطـراف الأخـرى المجـاورة أو غيـر المجـاورة، وقـادت إلـى تحـولات حقيقيـة فـي نمـط العلاقـات والتحالفـات (أو فـي الحقيقـة الائتلافـات) بيـن أطـراف الإقليـم، وبينهـا وبيـن الـدول الكبـرى فـي العالـم، فـي ظـل هـدف مشـترك هـو مواجهـة قـوى عاتيـة تهـدد أمـن ومصالـح شـعوب الإقليـم.**

**وتتمثـل المشـكلة هنـا فـي أن التاريـخ يعيـد نفسـه، علـى الرغـم مـن أن ذلـك لا يحـدث كثيـراً، فخـلال الحـرب العالميـة الثانيـة، كان الحلفـاء يعملـون معـاً – علـى الرغـم مـن تناقضاتهـم الحـادة – لتصفيـة الخطـر "النـازي" الـذي يهـدد الجميـع، فـي الوقـت نفسـه الـذي يفكـرون فيـه فـي توازنـات مـا بعـد الحـرب، فالخطـر العاجـل لـم يمنـع أحـد مـن التفكيـر فـي الخرائـط التاليـة، وهـذه هـي قضيـة الشـرق الاوسـط فـي المرحلـة الحاليـة، حتـى إشـعار آخـر.**

د. محمد عبدالسلام
المدير الأكاديمي،
أبوظبي، 25 سبتمبر 2014